مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

تقرير الإمام ابن قيم الجوزية أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها وأن الناس فطروا على الإسلام(*)

أ/ تركي بن عبدالرحمن بن حمد الشقير
باحث بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبدالعزيز- السعودية

*) تاريخ تسليم البحث 3/11/2024 تاريخ قبوله للنشر 8/12/2024
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

تقرير الإمام ابن قيم الجوزية أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها وأن الناس فطروا على الإسلام

أ/ تركي بن عبدالرحمن بن حمد الشقير
باحث بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الملك عبدالعزيز - السعودية

الملخص

تناول البحث تقرير الإمام ابن قيم الجوية أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، وقد جاء في البحث مقدمة وأربعة مطالب وخاتمة ومصادر ومراجع جاء في المطلب الأول: تعريف الفطرة وأنواعها، المطلب الثاني: أهمية الفطرة في الجانب العقدي، المطلب الثالث: جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، المطلب الرابع: مسائل تبين جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، وجاءت أهم النتائج التي توصلت إليها كالتالي:

- يتبين أن الفطرة في اللغة تأتي بعدة معان: الخلق، والشق، والتصدع، والابتداء، والإيجاد، والإبداع.
- أن التعريف الاصطلاحي المختار والراجح عند السلف أن الفطرة تعني الدين أو الإسلام، وهو قال به عامة السلف.
- أن أنواع الفطرة فطرتان الأولى: فطرة تتعلق بالقلب: وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه فهي تزكي الروح وتطهر القلب، وفطرة عملية: وهي الخصال المذكورة بالحديث وهي تطهر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها.
- أن معرفة الله عز وجل مغروسة بالفطر الإنسانية، وأنه مجبول على العقيدة الصحيحة، ولا يجهلها إلا من بعاند ما فطره الله عليه.
- تقرير الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في اعتماده على الفطرة السليمة مصدرًا لمسائل العقيدة.

الكلمات المفتاحية: ابن قيم الجوزية، الفطرة السليمة، العقيدة الصحيحة.

The Efforts of Imam Ibn Qayyim's Jawziyya's in Establishing the Harmony between Sound Nature and Correct Belief

Turki bin Abdulrahman bin Hamad Alshagair
A PhD candidate in the Department of Sharia and Islamic Studies
College of Arts and Humanities, King Abdulaziz University
Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

The study looked into Imam Ibn Qayyim al-Jawziyyah's claim that sound human nature (fitrah: Innate Knowledge) necessarily affirms and supports the correct Islamic doctrine, and that all people are naturally inclined toward Islam.

The study consists of an introduction, four main sections, a conclusion, sources, and references.

First Section: Definition and types of human nature (fitrah)discussed in three topics: o Topic 1: Linguistic definition of human nature (fitrah). o Topic 2: Technical definition of human nature (fitrah). o Topic 3: Types of human nature (fitrah).

- Second Section: The significance of human nature (fitrah) in matters of creed.
- Third Section: The efforts of Imam Ibn Qayyim al-Jawziyyah in establishing that sound fitrah indicates and supports the correct creed and affirms that all people are naturally inclined toward Islam.
- Fourth Section: Issues demonstrating the efforts of Imam Ibn Qayyim al-Jawziyyah in confirming the role of sound fitrah in affirming the correct creed and the natural inclination toward Islam, consisting of two topics:
- Topic 1: The existence of Allah Almighty. o Topic 2: Allah's care for His creation.

Key Findings:

- Linguistic Definitions of human nature (fitrah):
  The term fitrah in the Arabic language carries several meanings, including creation, splitting, cracking, initiation, origination, and innovation.
- Technical Definition:
  The preferred and most accurate technical definition, according to the (pious predecessors), is that fitrah refers to religion or Islam, a view widely accepted among scholars.
- Types of human nature (fitrah): There are two types:
  human nature (fitrah)of the Heart: This involves the knowledge of Allah, love for Him, and prioritizing Him above all else. It is the foundation of the soul and the essence of the heart.
  Practical human nature (fitrah) These are the natural dispositions mentioned in prophetic traditions, which manifest in physical actions. Both types support and strengthen one another.
- Innate Knowledge of Allah:
  Belief in Allah is deeply ingrained in human nature. The human soul is naturally inclined to the correct creed, and deviations occur only when external influences divert a person from their innate disposition.
- Efforts of imam Ibn Qayyim:

Imam Ibn Qayyim al-Jawziyyah, may Allah have compassion on him, emphasized the need of sound fitrah as a main source when resolving theological issues, which is consistent with the methodology of Ahl al-Sunnah wa al-Jama'ah.

Keywords: Ibn Qayyim al-Jawziyya, sound nature, correct belief.

مقدمة البحث:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فإن توحيد الله أصلٌ في كل الفطر، فالله سبحانه وتعالى خلق آدم وذريته حنفاء مسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾(١).

فالله تعالى فَطَرَ وركز في قلوب النّاس معرفة الإيمان بالله وحده لا شريك له، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾(٢).

فالتوحيد ميثاق معقود بين البشر وخالق البشر منذ تكوينهم الأول، فلما توالت الأيام والأزمان وقع البشر فيما وقعوا فيه من الشرك ففسدت فطرهم، وأخذوا يشركون بالله سبحانه وتعالى.

وهو سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ومعرفته وأصل عبادته محبته على آلائه ونعمه وعلى كماله وجلاله وذلك أمر فطري ابتدأ الله عليه خلقه وهي فطرته التي فطر الناس عليها قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾(٣) فالخلق مفطورون على معرفته وتوحيده.

وقد دل القرآن والسنة على أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)(٥).

وقد كان لجهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، أثر كبير في ذلك، ووجوب المحافظة على بقاء الفطرة على نقائها وأن أي تدنيس للفطر

(١) سورة الأعراف. الآيتان: ١٧٢، ١٧٣.
(٢) سورة الزخرف. الآية: ٨٧.
(٣) سورة: إبراهيم. الآية: ١٠.
(٤) سورة الروم. الآية: ٣٠-٣١.
(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (١٣٨٥) (١٠٠/٢)، ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ... (٢٠٤٧/٤) برقم (٢٦٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يؤدي إلى عدم ثبوت أي امر شرعي، فجاء البحث موسومًا بـ"تقرير الإمام ابن قيم الجوزية أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام".

مشكلات البحث وتساؤلاته:

يمكننا من خلال بحثنا أن نجيب عن السؤال الرئيس، هل الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام؟ وينبثق عنه عدة تساؤلات فرعية كالتالي:

١- ما معنى الفطرة وما القول الراجح فيها؟

٢- ما أهمية الفطرة السليمة كمصدر للعقيدة الإسلامية؟

٣- ما هي تقريرات الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام؟

٤- ما جهود الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في إثبات المسائل العقدية باعتماد الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام؟

أهداف البحث:

نوجز أهداف البحث في النقاط التالية:

- معرفة معنى الفطرة في اللغة والاصطلاح والراجح من الأقوال فيها.
- بيان أهمية الفطرة السليمة كمصدر للعقيدة الإسلامية.
- إبراز تقريرات الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام.
- بيان جهود الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في إثبات المسائل العقدية باعتماد الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام.

الدراسات السابقة:

الإمام ابن قيم الجوزية أحد الأعلام البارزين بين جمهرة علماء أهل السنة والجماعة، وقد كتب عنه عدد من الدراسات والبحوث والرسائل في شتى العلوم الشرعية، مثل العقيدة والحديث والفقه وغيرها من الفنون.

ولم أجد إلى الآن دراسة مؤصلة تفصيلية توضح تقريرات الإمام ابن قيم الجوزية للفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، إلا أن هناك بعض الرسائل الآتية:

إحداها: بعنوان "منهج الإمام ابن القيم في تقرير التوحيد" للباحثة آمال بنت عبد العزيز العمرو، وهي رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ثانيها: بعنوان "جهود الإمام ابن القيم في الدفاع عن عقيدة السلف للباحث عبدالله بن محمد جار النبي، وهي رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى.

ثالثها: بعنوان "المقاصد العقائدية عند ابن قيم الجوزية، للباحثة فوزية بنت عمر عبدالله بن عمر، وهي رسالة دكتوراه من جامعة سيدي محمد بن عبدالله المغرب.

والملاحظ على هذه الرسائل ما يلي:

أن موضوع تقرير الإمام ابن قيم الجوزية أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، لم تتعرض لموضوع البحث إلا على سبيل الإيجاز فقط، من دون تفصيل لذلك، وأنه وإن كتبت بعض الرسائل في بعض الجزئيات في الفطرة السليمة فإنها مجملة، لم يستوعب كاتبها جميع جوانب موضوع البحث، مع العلم بأن كلام ابن قيم الجوزية فيها كثير.

أن بحثي هذا – تقرير الإمام ابن قيم الجوزية أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام – بحث تفصيلي في الفطرة السليمة وتدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، مركز في هذا الجانب دون الجوانب الأخرى، بجمع شتات ما تفرق من تقرير الإمام ابن قيم الجوزية – رحمه الله – أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام من خلال كتبه، وعلى حسب اطلاعي، والله تعالى أعلم.

منهج البحث:

هو المنهج الوصفي التحليلي وهو المراد في الأبحاث النظرية حيث نوضح من خلاله تقرير الإمام ابن قيم الجوية أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام.

خطة البحث:

اشتملت خطة البحث على مقدمة وأربعة مطالب وخاتمة ومصادر ومراجع.

المقدمة: واشتملت على مشكلة البحث وتساؤلاته، وأهدافه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطة البحث.

المطلب الأول: تعريف الفطرة وأنواعها.

المطلب الثاني: أهمية الفطرة في الجانب العقدي.

المطلب الثالث: جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام.

المطلب الرابع: مسائل تبين جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

المصادر والمراجع.

المطلب الأول: تعريف الفطرة وأنواعها

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الفطرة في اللغة

الفطرة في اللغة: تعني الخلق والابتداء والشق[١]، وقال الخليل الفراهيدي: "وفطر الله الخلق، أي خلقهم، وابتدأ صنعة الأشياء، وهو فاطر السماوات والأرض، والفطرة التي طبعت عليها الخليقة من الدين، فطرهم الله على معرفته بربوبيته... وانفطر الثوب وتفطر أي انشق، وتفطرت الجبال والأرض: انصدعت"[٢].

وقال الراغب في مفرداته: "أصل الفَطْرِ: الشّقُّ طولًا، يقال: فَطَرَ فلان كذا فَطْرًا، وأَفْطَرَ هو فُطُورًا، وانْفَطَرَ انْفِطَارًا. قال تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[٣]، أي: اختلال ووهي فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصّلاح، قال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾[٤]، وفَطَرْتُ الشاة: حلبتها بإصبعين، وفَطَرْتُ العجين: إذا عجنته فخبزته من وقته، ومنه: الفِطْرَةُ، وفَطَرَ الله الخلق، وهو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال فقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٥]، فإشارة منه تعالى إلى ما فَطَرَ، أي: أبدع وركز في النّاس من معرفته تعالى، وفِطْرَةُ الله: هي ما ركز فيه من قوّته على معرفة الإيمان، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٦]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾[٨] أي: أبدعنا وأوجدنا"[٩].

ومما سبق يتبين أن الفطرة في اللغة تأتي بعدة معان: الخلق، والشق، والتصدع، والابتداء، والإيجاد، والإبداع.

المسألة الثانية: تعريف الفطرة اصطلاحًا:

للفطرة تعريفات اصطلاحية متعددة، حيث عرّفها العلماء بأكثر من تعريف، ومن أهمها[١٠]:

١- أن الفطرة هي الدين أو الإسلام.

٢- أن الفطرة هي الخلقة على معرفة الله تعالى والإيمان به.

٣- أن الفطرة هي السنة، يعني سنن الأنبياء عليهم السلام التي أمرنا أن نقتدي بهم فيها.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢٢٢/١٣)، والصحاح (٧٨١/٢).
(٢) انظر: كتاب العين (٤١٨/٧).
(٣) سورة الملك. الآية: ٣.
(٤) سورة المزمل. الآية: ١٨.
(٥) سورة الروم. الآية: ٣٠.
(٦) سورة الزخرف. الآية: ٨٧.
(٧) سورة فاطر. الآية: ١.
(٨) سورة طه. الآية: ٧٢.
(٩) المفردات في غريب القرآن. (٦٤٠).
(١٠) انظر: التمهيد (٦٦/١٨-٧٢)، درء تعارض العقل والنقل (٣٥٩/٨ -٤٥١)، أحكام أهل الذمة (٩٤٤/٢-١٠٧٠)، فتح الباري (٣٣٩/١٠).

٤- أن الفطرة هي العهد الذي أخذه الله على بني آدم في أصلاب آبائهم.

٥- أن الفطرة هي السلامة خلقة، وطبعًا، وبنيةً، ليس معها كفر ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار.

٦- أن الفطرة تعني أن الله ابتدأ الناس للحياة والموت، والسعادة والشقاء.

٧- أن الفطرة تعني أن الله فطر الناس على الإنكار والمعرفة، وعلى الكفر والإيمان.

ويمكن القول بأن التعريف المختار والراجح عند السلف مما سبق هو: أن الفطرة تعني الدين أو الإسلام، وهذا التعريف قال به عامة السلف

قال الإمام ابن قيم الجوزية: "والصحيح من هذه الأقوال ما دل عليه القرآن والسنة أنهم ولدوا حنفاء على فطرة الإسلام بحيث لو تركوا وفطرهم لكانوا حنفاء مسلمين، كما ولدوا أصحاء كاملي الخلقة، فلو تركوا وخلقهم لم يكن فيهم مجدوع ولا مشقوق الأذن.

ولهذا لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم لذلك شرطًا مقتضيًا غير الفطرة، وجعل خلاف مقتضاها من فعل الأبوين. وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل: (إني خلقت عبادي حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)[١] فأخبر أن تغيير الحنيفية التي خلقوا عليها بأمر طارئ من جهة الشيطان، ولو كان الكفار منهم مفطورين على الكفر لقال: خلقت عبادي مشركين، فأتتهم الرسل فاقتطعتهم عن ذلك، كيف وقد قال: "خلقت عبادي حنفاء كلهم" فهذا القول أصح الأقوال، والله أعلم"[٢].

المسألة الثالثة: أنواع الفطرة

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية عند كلامه على حديث (خمس من الفطرة)[٣]، أن الفطرة فطرتان:

١- فطرة تتعلق بالقلب: وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه.

٢- طرة عملية: وهي الخصال المذكورة بالحديث.

فالأولى: تزكي الروح وتطهر القلب، والثانية: تطهر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها[٤].

ويقول ابن حجر: ويتعلق بهذه الخصال مصالح دينية ودنيوية تدرك بالتتبع، منها:

تحسين الهيئة، وتنظيف البدن جملة وتفصيلًا، والاحتياط للطهارتين، والإحسان إلى المخالط والمقارن بكف ما يتأذى به من رائحة كريهة، ومخالفة شعار الكفار من المجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان، وامتثال أمر الشارع، والمحافظة على ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٥] لما في المحافظة على هذه الخصال من

(١) أخرجه مسلم. كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٧) برقم (٢٨٦٥).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢/١٠٦٩-١٠٧٠).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب قص الشارب (٧/١٦٠) برقم (٥٨٨٩)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، (١/٢٢١) برقم (٢٥٧).

(٤) تحفة المودود (١٦١).

(٥) سورة غافر. الآية: ٦٤.

مناسبة ذلك، وكأنه قيل: قد حسنت صوركم فلا تشوهوها بما يقبحها، أو حافظوا على ما يستمر به حسنها، وفي المحافظة عليها محافظة على المروءة، وعلى التآلف المطلوب، لأن الإنسان إذا بدا في الهيئة الجميلة كان أدعى لانبساط النفس إليه، فيقبل قوله ويحمد رأيه، والعكس بالعكس"(١).

وقال ابن سعدي: "وجعل تعالى شرائع الفطرة نوعين:

أحدهما: يطهر القلب والروح، وهو الإيمان بالله وتوابعه من خوفه ورجائه، ومحبته والإنابة إليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢) فهذه تزكي النفس، وتطهر القلب وتنميه، وتذهب عنه الآفات الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة، وهي كلها ترجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب.

والنوع الثاني: ما يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته، ودفع الأوساخ والأقذار عنه، وهي هذه العشرة، وهي من محاسن الدين الإسلامي؛ إذ هي كلها تنظيف للأعضاء، وتكميل لها، لتتم صحتها وتكون مستعدة لكل ما يراد منها، فأما المضمضة والاستنشاق.... فعلمت أن هذه الأشياء كلها، تكمل ظاهر الإنسان وتطهره وتنظفه، وتدفع عنه الأشياء الضارة والمستقبحة، والنظافة من الإيمان.

والمقصود: أن الفطرة هي شاملة لجميع الشريعة، باطنها وظاهرها؛ لأنها تنفي الباطن من الأخلاق الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة التي ترجع إلى عقائد الإيمان والتوحيد، والإخلاص لله والإنابة إليه، وتنقي الظاهر من الأنجاس والأوساخ وأسبابها، وتطهره الطهارة الحسية والطهارة المعنوية، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "الطهور شطر الإيمان"(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٤)، فالشريعة كلها طهارة وزكاء وتنمية وتكميل، وحث على معالي الأمور، ونهي عن سفسافها"(٥).

المطلب الثاني: أهمية الفطرة في الجانب العقدي

إن كل مخلوق قد فطر على معرفة الله عز وجل والإيمان به، لأن معرفة الله عز وجل مغروسة بالفطر الإنسانية، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة)(٦)، فالأصل في الإنسان أنه مجبول على العقيدة الصحيحة، ولا يجهلها إلا من اجتالته الشياطين لقول الله تعالى في الحديث القدسي: (إني خلقت عبادي حنفاء

(١) فتح الباري (١٠/٣٣٩).
(٢) سورة الروم الآية ٣٠-٣١.
(٣) أخرجه مسلم، **كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء** (١/٢٠٣)، برقم (٢٢٣). وأحمد في مسنده (٣٧/٥٤٢) برقم (٢٢٩٠٨)،
(٤) سورة البقرة الآية ٢٢٢.
(٥) انظر: بهجة قلوب الأبرار ص (٥٩-٦١).
(٦) سبق تخريجه.

فاجتالتهم الشياطين)[١]، ومن طرأ على قلبه ما يصرفه عنها لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)[٢].

قال ابن تيمية: "أن الإقرار بالصانع، ومعرفته ومحبته وتوحيده فطري، يكون ثابتًا في قلب الإنسان، وهو يظن أنه ليس في قلبه، ولهذا كان عامة هؤلاء مقرين بالصانع، معترفين به قبل أن يسلكوا هذه الطريق النظرية، سواء كانت صحيحة أو باطلة"[٣].

فالتوحيد أصلٌ في فطرة الإنسان، لأن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم وذريته من بعده خلقهم حنفاء مسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٤].

قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾[٥] وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة)[٦]،[٧].

فالتوحيد ميثاق معقود بين البشر وخالق البشر منذ تكوينهم الأول، فلما توالت الأيام والأزمان وقع البشر فيما وقعوا فيه من الشرك ففسدت فطرهم، وأخذوا يشركون بالله سبحانه وتعالى، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان الناس على التوحيد مدة عشرة قرون، وكانوا كلهم على الإسلام، وكان أول ما عُبدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسمَّوها بأسماء أولئك الصالحين ودًّا وسواعًا ويغوثَ ويعوقَ ونسرًا، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى – وله الحمد والمنة – نوحًا يأمرهم بعبادة الله لا شريك له"[٨].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: "دل القرآن والسنة والفطرة وأدلة العقول أنه سبحانه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق ولم يخلق شيئا عبثا ولا سدى ولا باطلا وإنما أوجد العالم العلوي والسفلي ومن فيهما بالحق الذي هو

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) مجموع الفتاوى. (٤٦١/١٦).
(٤) سورة الأعراف. الآيتان: ١٧٢، ١٧٣.
(٥) سورة الروم. الآية: ٣٠.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) تفسير القرآن العظيم (٣١٩/٢).
(٨) المرجع السابق (٢٧٢/٢).

وصفه واسمه وقوله وفعله وهو سبحانه الحق المبين فلا يصدر عنه إلا حق.... وهو سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ومعرفته وأصل عبادته محبته على آلائه ونعمه وعلى كماله وجلاله وذلك أمر فطري ابتدأ الله عليه خلقه وهي فطرته التي فطر الناس عليها كما فطرهم على الإقرار به كما قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(١) فالخلق مفطورون على معرفته وتوحيده فلو خلوا وهذه الفطرة لنشأوا على معرفته وعبادته وحده وهذه الفطرة أمر خلقي خلقوا عليه ولا تبديل لخلقه فمضى الناس على هذه الفطرة قرونا عديدة ثم عرض لها موجب فسادها وخروجها عن الصحة والاستقامة بمنزلة ما يعرض للبدن الصحيح والطبيعة الصحيحة مما يوجب خروجهما عن الصحة إلى الانحراف فأرسل رسله ترد الناس إلى فطرتهم الأولى التي فطروا عليها"(٢).

وقال: "من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾(٣) فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادته وهي شكره وحبه وخشيته فطري ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم"(٤).

فالفطرة تقتضي إفراد الله بالعبادة وشكره، وتناول المنافع، واجتناب المضار، فإن الله تعالى فطر خلقه على محبته، والإقبال عليه، وابتغاء الوسيلة إليه، وأنه لا شيء على الإطلاق أحب إلى العباد منه، فلو خلوا ودواعي فطرهم لما مالوا عن ذلك ولا اختاروا سواه، ولكن غيرت الفطر وأفسدت.

إذًا فالفطرة السليمة تقر بخالقها وتحبه وتتذلل له وتخلص له الدين، وفيها قوة موجبة لذلك، وكذلك تقر بشرعه وتؤثر هذا الشرع على غيره، ولذلك جاءت الرسل وأنزلت الكتب بتقرير ما استودع سبحانه في الفطر من ذلك، وتكميله وتفصيله وزيادته حسنًا إلى حسنه، فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقًا وتوافقًا، فعبده عباده وأحبوه ومجدوه بداعي الشرع وداعي الفطرة، فاجتمعت لهم الدواعي ودعتهم إلى وليهم وإلههم وفاطرهم، فأقبلوا إليه بقلوب سليمة(٥).

المطلب الثالث: جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام

إن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن المسائل الاعتقادية تُعرف بالمصادر الأصلية الكتاب والسنة والإجماع، وكذلك أدلة على العقائد من العقل الصريح والفطرة السليمة.

وقد كان الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في تقريراته لمسائل العقيدة يعتمد على دليل الفطرة السليمة، حيث كان يقرر بها مذهب أهل السنة والجماعة.

---

(١) سورة: إبراهيم. الآية: ١٠.
(٢) انظر: شفاء العليل. (٢٥٣).
(٣) سورة: الفاتحة. الآية: ٥.
(٤) مدارج السالكين. (١/ ٣٢).
(٥) انظر: لوامع الأنوار البهية. (١/٣٥٣-٣٥٤).

ومن تقريراته رحمه الله اثبات ان الله خلق الخلق على هذه الفطرة فيقول: "قال: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1]... فبين أن هذا علم فطري ضروري لا بد لكل بشر من معرفته، وذلك يتضمن حجة الله في إبطال التعطيل، وأن القول بإثبات الصانع علم فطري ضروري، وهو حجة على نفي التعطيل"[2].

وقال: "أن الله فطر عباده على فطرة فيها الإقرار به ومحبته والإخلاص له والإنابة إليه وإجلاله وتعظيمه وأن الشخص الخارج عنها لا يحدث فيها ذلك ويجعلها فيها بعد أن لم يكن وإنما يذكرها بما فيها وينبهها عليه ويحركها له ويفصله لها ويبينه ويعرفها الأسباب المقوية والأسباب المعارضة له والمانعة من كماله كما أن الشخص الخارج لا يجعل في الفطرة شهوة اللبن عند الرضاع والأكل والشرب والنكاح وإنما تذكر النفس وتحركها لما هو مركوز فيها بالقوة"[3].

وقال أيضًا: "دلالة الكتاب والسنة والآثار واتفاق السلف على أن الخلق مفطورون على دين الله الذي هو معرفته والإقرار به ومحبته والخضوع له وإن ذلك موجب فطرتهم ومقتضاها يجب حصوله فيها إن لم يحصل ما يعارضه ويقتضي حصول ضده وإن حصول ذلك فيها لا يقف على وجود شرط بل على انتفاء المانع، فإذا لم يوجد فهو لوجود منافيه لا لعدم مقتضيه، ولهذا لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم لوجود الفطرة شرطًا بل ذكر ما يمنع موجبها حيث قال فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه فحصول هذا التهويد والتنصير موقوف على أسباب خارجة عن الفطرة وحصول الحنيفية والإخلاص ومعرفة الرب والخضوع له لا يتوقف أصله على غير الفطرة وإن توقف كماله وتفصيله على غيرها"[4].

وقال أيضًا: "وقد تقرر أن الله سبحانه كامل الصفات له الأسماء الحسنى، ولا يكون عن الكامل في ذاته وصفاته إلا الفعل المحكم، وهو سبحانه خلق عباده على الفطرة، وكل مولود فإنما يولد على الفطرة، ويعدلون بهم عنها، ولو تركوهم لما اختاروا عليها غيرها، ولكن أخرجوهم عن سنن الحنيفية وأفسدوا فطرهم وقلوبهم، وهكذا بالأضداد والأغيار يخرج بعض المخلوقات عن سنن الإتقان والحكمة، ولولا تلك الأضداد والأغيار لكانت في مرتبتها كالمولود في فطرته"[5].

ومن تقريراته رحمه الله بيان أن الفطرة هي الإسلام والدين والملة والحنيفية والتوحيد فيقول: "فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده فمن

(١) سورة الأعراف. الآية: ١٧٣.
(٢) انظر: احكام اهل الذمة. (١٠١٢/٢).
(٣) شفاء العليل. (٣٠٢).
(٤) المرجع السابق. (٣٠٢-٣٠٣).
(٥) طريق الهجرتين. (١٤٣).

كان عليها فهو المهتدي لأن من كان يهوديًا أو نصرانيًا فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل"[١].

وقال: "وإنما كانت هذه الخصال من الفطرة لأن الفطرة هي الحنيفية ملة إبراهيم"[٢].

وقال أيضًا: "أما قولكم إن الملة هي التوحيد، فالملة هي الدين، وهي مجموعة أقوال وأفعال واعتقاد، ودخول الأعمال في الملة كدخول الإيمان، فالملة: هي الفطرة وهي الدين، ومحال أن يأمر الله سبحانه باتباع إبراهيم في مجرد الكلمة دون الأعمال وخصال الفطرة، وإنما أمر بمتابعته في توحيده وأقواله وأفعاله، وهو صلى الله عليه وسلم اختتن امتثالًا لأمر ربه الذي أمره به وابتلاه به فوفاه كما أمر، فإن لم نفعل كما فعل، لم نكن متبعين له"[٣].

وقال أيضًا: "تأمل هذه الألفاظ كيف جعل الفطرة للإسلام، فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكلمة الإخلاص: هي شهادة أن لا إله إلا الله، والملة لإبراهيم، فإنه صاحب الملة: وهي التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة، والدين للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو دينه الكامل، وشرعه التام الجامع لذلك كله، وسماه سبحانه إمامًا وأمة وقانتا وحنيفًا، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٤]،[٥].

وقال أيضًا: "ومما ينبغي أن يعلم أنه إذا قيل أنه ولد على الفطرة أو على الإسلام أو على هذه الملة أو خلق حنيفا فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده فإنه الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[٦] ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام لقروبه ومحبته فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض وليس المراد أيضًا مجرد قبول الفطرة لذلك فإن هذا القبول تغير بتهويد الأبوين وتنصيرهما بحيث يخرجان الفطرة عن قبولها وإن سعيا بين بنيهما ودعائهما في امتناع حصول المقبول وأيضًا فإن هذا القبول ليس هو الإسلام وليس هو هذه الملة وليس هو الحنيفية وأيضًا فإنه شبه تغيير الفطرة بجدع البهيمة الجمعاء ومعلوم أنهم لم يغيروا قبوله ولو تغير القبول وزال لم تقم عليه الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب بل المراد أن كل مولود فإنه يولد على محبته لفاطره وإقراره له بربوبيته وادعائه له بالعبودية فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة فيشتهي اللبن الذي يناسبه ويغذيه وهذا من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٧] وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ

(١) بدائع الفوائد. (٤/ ٩٦٤).
(٢) تحفة المودود. (١٦٠).
(٣) المرجع السابق ص (١٧٨).
(٤) سورة البقرة الآية: ١٢٤.
(٥) جلاء الافهام ص (٢٦٨).
(٦) سورة النحل الآية: ٧٨.
(٧) سورة طه الآية: ٥٠.

فَهَدَىٰ﴾[1]، فهو سبحانه خلق الحيوان مهتديًا إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئًا فشيئا بحسب حاجته ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يفسد ما ولد عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة فهكذا ما ولد عليه من الفطرة ولهذا شبهت الفطرة باللبن بل كانت إياه في التأويل للرؤيا ولما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء اللبن والخمر أخذ اللبن فقيل له أخذت الفطرة ولو أخذت الخمر لغوت أمتك فمناسبة اللبن لبدنه وصلاحه عليه دون غيره لمناسبة الفطرة لقلبه وصلاحه بها دون غيرها"[2].

ومن تقريراته رحمه الله أن الفطرة مركوز بها معرفة الله سبحانه وتعالى فيقول: "أن الروح مركوزٌ في أصل فطرتها وخلقتها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزًا في نفس روحه وذاته وفطرته"[3].

وقال: "إن الطفل يصير مسلمًا – تبعًا لإسلام أبيه – فكذلك إنما صار كافرًا، تبعًا لكفر أبيه، فإذا مات الأب زال من يتبعه في كفره، فكان الإسلام أولى به... أنه مقتضى الفطرة الأصلية التي فطر الله عليها عباده، وإنما عارضها فعل الأبوين، وقد زال العارض، فعمل المقتضى عمله"[4].

ومن تقريراته رحمه الله أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، عند أهل السنة والجماعة فيقول: "والمصباح: هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور: نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نورًا على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه أن الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور على النور، عكس من تلاطمت في قلبه الشبه الباطلة، والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات، التي يسميها أهلها القواطع العقليات"[5].

وقال أيضًا: "أن تعطيل الحكمة والغاية المطلوبة بالفعل إما أن يكون لعدم علم الفاعل بها أو تفاصلها وهذا محال في حق من هو بكل شيء عليم، وإما لعجزه عن تحصيلها وهذا ممتنع في حق من هو على كل شيء قدير، وإما لعدم إرادته ومشيئته الإحسان إلى غيره وإيصال النفع إليه وهذا مستحيل في حق أرحم الراحمين، ومن إحسانه من لوازم ذاته فلا يكون إلا محسناً منعمًا منانًا، وإما لمانع يمنع من إرادتها وقصدها وهذا مستحيل في حق من لا يمنعه مانع عن فعل ما يريد وإما لاستلزامها نقصًا ومنافاتها كمالا وهذا باطل، بل هو قلب للحقائق وعكس للفطر ومناقضة لقضايا العقول، فإن من يفعل لحكمة وغاية مطلوبة يحمد عليها أكمل ممن يفعل لا لشيء البتة، كما أن

(١) سورة الأعلى الآية: ٢-٣.
(٢) شفاء العليل ص (٢٨٨-٢٨٩).
(٣) بدائع الفوائد. (١٦٣/٤).
(٤) انظر: احكام أهل الذمة. (٢/ ٨٩٧).
(٥) اجتماع الجيوش. (١٤).

من يخلق أكمل ممن لا يخلق، ومن يعلم أكمل ممن لا يعلم، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يقدر ويريد أكمل ممن لا يتصف بذلك، وهذا مركوز في الفطر مستقر في العقول فنفي حكمته بمنزلة نفي هذه الأوصاف عنه"(١).

وقال أيضًا: "وجمهور الأمة يثبت حكمته سبحانه والغايات المحمودة في أفعاله فليس مع النفاة سمع ولا عقل ولا إجماع بل السمع والعقل والإجماع والفطرة تشهد ببطلان قولهم.... وجماع ذلك أن كمال الرب تعالى وجلاله وحكمته وعدله ورحمته وقدرته وإحسانه وحمده ومجده وحقائق أسمائه الحسنى تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة ولا لغاية مطلوبة وجميع أسمائه الحسنى تنفي ذلك وتشهد ببطلانه وإنما نبهنا على بعض طرق القرآن وإلا فالأدلة التي تضمنها إثبات ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا"(٢).

وقد نظم في ذلك بقوله:

هذا وقولهم خلاف الحس	والمعقول والمنقول والبرهان
مع كونه أيضًا خلاف الفطرة الأو	لى وسنة ربنا الرحمن
فالله قد فطر العباد على التفا	هم بالخطاب لمقصد التبيان
كل يدل على الذي في نفسه	بكلامه من أهل كل لسان
فترى المخاطب قاطعا بمراده	هذا مع التقصير في الإنسان(٣)

ومن تقريراته رحمه الله أن الفطرة تدعو إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته فيقول: "قال الإمام أحمد ومن تبعه: إنه يحكم بإسلامه – يعني الصبي الصغير – في هذه المواضع وفيما إذا مات أبواه أو أحدهما، وهو دون البلوغ، لأنه إنما كان كافرًا تبعًا لهما، وإلا فهو على الفطرة الأصلية، فإذا لم يكن له من يتبعه على دينه كان مسلمًا، لأن مقتضى الفطرة موجود، والمغير لها مفقود، فأحمد اعتبر في بقائه على دينه وجود أبويه لتتحقق التبعية؛ والشافعي لم يعتبر بقاء الأبوين ولا وجودهما في كونه تبعًا لهما، فإذا كان قد أقره على الدين الباطل حيث لا تتحقق تبعية الأبوين علم أن إقراره لم يكن لأجل آبائه، وهو ظاهر"(٤).

وقال: "فإن الرسول يدعو إلى التوحيد، ولكن الفطرة دليل عقلي يعلم به إثبات الصانع، لم يكن في مجرد الرسالة حجة عليهم، فهذه الشهادة على أنفسهم التي تتضمن إقرارهم بأن الله ربهم، ومعرفتهم بذلك أمر لازم لكل بني آدم، به تقوم حجة الله تعالى في تصديق رسله، فلا يمكن أحدًا أن يقول يوم القيامة: إني كنت عن هذا غافلًا، ولا أن الذنب كان لأبي المشرك دوني لأنه عارف بأن الله ربه لا شريك له، فلم يكن معذورًا في التعطيل والإشراك بل قام به ما يستحق به العذاب.

(١) شفاء العليل. (٢٠٤).
(٢) انظر: المرجع السابق (٢٠٥).
(٣) الكافية الشافية. (٦٠١).
(٤) احكام أهل الذمة. (٢٠٠/١).

ثم إن الله سبحانه – لكمال رحمته وإحسانه – لا يعذب أحدًا إلا بعد إرسال الرسول إليه، وإن كان فاعلًا لما يستحق به الذم والعقاب: فلله على عبده حجتان قد أعدهما عليه لا يعذبه إلا بعد قيامهما:

إحداهما: ما فطره عليه، وخلقه عليه من الإقرار بأنه ربه ومليكه وفاطره، وحقه عليه لازم.

والثانية: إرسال رسله إليه بتفصيل ذلك وتقريره وتكميله، فيقوم عليه شاهد الفطرة، والشرعة، ويقر على نفسه بأنه كان كافرًا كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾[1]، فلم ينفذ عليهم الحكم إلا بعد إقرار وشاهدين وهذا غاية العدل"[2].

وقال أيضًا: "فلو أراد الله ان يهديك لسالت نفسك بنفسك وقلت اخبريني عن هذه الطبيعة أهي ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الافعال العجيبة ام ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه فإن قالت لك: بل هي ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والارادة والحكمة، فقل لها: هذا هو الخالق البارئ المصور فلم تسمينه طبيعية ويا لله من ذكر الطبائع ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله ودخلت في جملة العقلاء والسعداء فإن هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى وإن قالت: تلك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلًا، وقد شوهد من آثارها ما شوهد فقل لها: هذا مالا يصدقه ذو عقل سليم كيف تصدر هذه الافعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين والمبرسمين ثم قل لها بعد: ولو ثبت لك ما ادعيت فمعلوم ان مثل هذه الصفة ليست بخالقة لنفسها، ولا مبدعة لذاتها، فمن ربها ومبدعها وخالقها، ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك فهي إذا من ادل الدلائل على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجد عليك تعطيلك رب العالم وجحدك لصفاته وأفعاله الا مخالفتك العقل والفطرة، ولو حاكمناك إلى الطبيعة لرأيناك انك خارج عن موجبها فلا انت مع موجب العقل ولا الفطرة ولا الطبيعة ولا الإنسانية أصلًا وكفى بذلك جهلًا وضلالًا فإن رجعت إلى العقل وقلت لا يوجد حكمة الا من حكيم قادر عليم ولا تدبير متقن الا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد قادر عليه لا يعجزه ولا يؤوده"[3].

ومن تقريراته رحمه الله أن الفطرة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له فيقول: "من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾[4] فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه، وعبادته – وهي شكره وحبه وخشيته – فطري ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم"[5].

(١) سورة: الأنعام. الآية: ١٣٠.
(٢) احكام أهل الذمة. (٢/١٠١٣- ١٠١٤).
(٣) مفتاح دار السعادة. (١/ ٢٦١).
(٤) سورة: الفاتحة. الآية: ٥.
(٥) انظر: مدارج السالكين. (١/ ٣٢).

وقال: "وهو سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ومعرفته وأصل عبادته محبته على آلائه ونعمه وعلى كماله وجلاله وذلك أمر فطري ابتدأ الله عليه خلقه وهي فطرته التي فطر الناس عليها كما فطرهم على الإقرار به كما قالت الرسل لأممهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾(١) فالخلق مفطورون على معرفته وتوحيده"(٢).

وقال أيضًا: "إن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم، واستبدلوا بها الشرك وارتكبوه، وليس معهم حجة من الله به، وقبحه والوعيد عليه بالنار لم يزل معلومًا من دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، وأخبار عقوبات الله لأهله متداولة بين الأمم قرنًا بعد قرن، فلله الحجة البالغة على المشركين في كل وقت، ولو لم يكن إلا ما فطر عباده عليه من توحيد ربوبيته المستلزم لتوحيد إلهيته، وأنه يستحيل في كل فطرة وعقل أن يكون معه إله آخر، وإن كان سبحانه لا يعذب بمقتضى هذه الفطرة وحدها، فلم تزل دعوة الرسل إلى التوحيد في الأرض معلومة لأهلها، فالمشرك يستحق العذاب بمخالفته دعوة الرسل"(٣).

ومن تقريراته رحمه الله أن الفطر تثبت صفات الكمال والجلال لله سبحانه وتعالى على سبيل الاجمال فيقول: "وهكذا باب التوحيد وإثبات الصفات فإن في الفطرة الإقرار بالكمال المطلق الذي لا نقص فيه للخالق سبحانه ولكن معرفة هذا الكمال على التفصيل مما يتوقف على الرسل وكذلك تنزيهه عن النقائص والعيوب هو أمر مستقر في فطر الخلائق.... فليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتنزيهه عن العيوب والنقائص وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها وكذلك في الفطر الإقرار بسعادة النفوس البشرية وشقاوتها وجزائها بكسبها في غير هذه الدار وأما تفصيل ذلك الجزاء والسعادة والشقاوة فلا تعلم إلا بالرسل وكذلك فيها معرفة العدل ومحبته وإيثاره وأما تفاصيل العدل الذي هو شرع الرب تعالى فلا يعلم إلا بالرسل فالرسل تذكر بما في الفطر وتفصله وتبينه ولهذا كان العقل الصريح موافقًا للنقل الصحيح والشرعة مطابقة للفطرة يتصادقان ولا يتعارضان خلافًا لمن قال إذا تعارض العقل والوحي قدمنا العقل على الوحي"(٤).

ومن تقريراته رحمه الله أن أهل السنة والجماعة يستدلون بالفطرة على المسائل الاعتقادية فيقول: "أن الطفل أول ما يميز يعرف مراد من يربيه بلفظه قبل أن يعرفه شيئًا من العلوم الضرورية، فلا أقدم عنده ولا اسبق من تيقنه لمراد من يخاطبه بلفظه، فالعلم بذلك مقدم على سائر العلوم الضرورية، فمن جعل العقليات تفيد اليقين، والسمعيات لا تفيد معرفة مراد المتكلم فقد قلب الحقائق وناقض الفطرة وعكس الواقع"(٥).

وقال: "أن هؤلاء المعارضين للوحي بآرائهم وعقولهم تتضمن معارضتهم الفرية على الوحي والعقل واللغة والفطرة وإفسادها... وهو اعتقاد خلاف ما دلت عليه النصوص ومعرفة الحق بعقولهم وفطرهم والاجتهاد في صرف ألفاظ الوحي عن حقائقها، وظواهرها المفهومة منها، وبيان ذلك أنهم إما أن يريدوا منهم اعتقاد الظاهر أو يريدوا منهم

(١) سورة: إبراهيم. الآية: ١٠.
(٢) شفاء العليل. (٢٥٣).
(٣) زاد المعاد. (٣/ ٥٩٩)..
(٤) انظر: شفاء العليل. (٣٠٢).
(٥) الصواعق المرسلة. (٢/ ٦٤٢).

خلافه فإن أرادوا الأول وهو باطل عند النفاة، فقد أرادوا منهم اعتقاد الباطل، وإن أرادوا الثاني لزمت تلك المفاسد العظيمة، وعلى التقديرين فلا يكونون قد بينوا الحق، ولا هدوا الخلق.

وأما فريتهم على العقل فإنهم جاءوا إلى المقدمات الفطرية التي فطر الله عليها عباده فجعلوها من حكم الوهم والخيال، وجاءوا إلى المقدمات الباطلة فجعلوها من أحكام العقل فافتروا على العقل في النفي والإثبات.

وأما فريتهم على الفطرة فإن الله فطر عباده على الإقرار بعلوه كما فطرهم على الإقرار بأنه ربهم وخالقهم فغيروا الفطرة وأفسدوها بإنكار ذلك"(١).

ومن تقريراته رحمه الله اثبات بعض صفات الله بالفطرة السليمة فيقول: "قال شيخ الإسلام: والذي تقرر في قلوب العامة هو ما فطر الله تعالى عليه الخليقة من توجهها إلى ربها تعالى عند النوازل والشدائد والدعاء والرغبات إليه تعالى نحو العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة من غير موقف وقفهم عليه ولكن "﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾(٢)، وما من مولود إلا وهو يولد على هذه الفطرة حتى يجهمه وينقله إلى التعطيل من يقيض له"(٣).

ومن تقريراته رحمه الله أن الفطر والعقل متوافقة في اثبات المسائل العقدية فيقول: "قال تعالى: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾(٤).

فأخبر سبحانه عن مثل نور الإيمان به، وبأسمائه وصفاته وأفعاله، وصدق رسله في قلوب عباده، وموافقة ذلك لنور عقولهم وفطرهم التي أبصروا بها نور الإيمان بهذا المثل المتضمن لأعلى أنواع النور المشهود، وأنه نور على نور، نور الوحي ونور العقل، نور الشرعة، ونور الفطرة، نور الأدلة السمعية، ونور الأدلة العقلية"(٥).

وقال في سياق رده على القائلين: إن الله سبحانه وتعالى موصوف بالسلوب والإضافات: "إلى أمثال ذلك من النفي فاعرض أقوال هذين الخصمين على الفطرة الصحيحة والعقل، واجلس مجلس الحكومة بينهما ثم تحيز إلى أي الفئتين شئت، فما ثم إلا الإثبات من كل وجه لما أثبته الله لنفسه، وأثبته رسوله، أو التعطيل الصرف، والنفي المحض فاختر لنفسك إحدى الخطتين، واجعلها مع إحدى الفئتين، فالمرء مع من أحب"(٦).

وقال: "والتفكر مما يدلهم على صدق رسله، ويقيم عليهم حجته، وكان غاية ما دعوا إليه القدر المحض، وذلك مشترك بين الصادق والكاذب، والبر والفاجر، فهؤلاء بإنكارهم الحكمة والتعليل سدوا على نفوسهم باب الإيمان والهدى، وفتحوا عليهم باب المكابرة، وجحد الضروريات، فإن ما في خلق الله وأمره من الحكم والمصالح المقصودة

(١) المرجع السابق (٤/١٣٤٠- ١٣٤١).
(٢) سورة: الروم. الآية: ٣٠.
(٣) اجتماع الجيوش. (١٣٤).
(٤) سورة: النور. الآية: ٣٥.
(٥) الصواعق المرسلة. (٣/٨٥١- ٨٥٢).
(٦) المرجع السابق (٣/ ١١١٦).

بالخلق، والأمر والغايات الحميدة، أمر تشهد به الفطرة والعقول ولا ينكره سليم الفطرة، وهم لا ينكرون ذلك، وإنما يقولون وقع بطريق الاتفاق لا بالقصد كما تسقط خشبة عظيمة فيتفق عبور حيوان مؤذ تحتها فتهلكه ولا ريب أن هذا ينفي حمد الرب سبحانه على حصول هذه المنافع والحكم لأنها لم تحصل بقصده وإرادته بل بطريق الاتفاق الذي لا يحمد عليه صاحبه ولا يثنى عليه بل هو عندهم بمثابة ما لو رمى رجل درهما لا لغرض ولا لفائدة بل لمجرد قدرته ومشيئته على طرحه فاتفق أن وقع في يد محتاج انتفع به فهذا من شأنه الحكم والمصالح عند المنكرين"(١).

وقال أيضًا: "أن محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له سبحانه، فإن لولا محبة الله له لما جعل محبته في قلبه، فلما أحبه ألهمه حبه وآثره به، فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها، فإنه من تقرب إليه شبرًا تقرب إليه ذراعًا، ومن تقرب إليه ذراعًا تقرب إليه باعًا، ومن أتاه مشيًا أتاه هرولة.

وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذي يحبه فوق محبة العبد له، فإذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذي فر من محبه وآثر غيره عليه، فإذا عاوده وأقبل إليه وتخلى عن غيره، فكيف لا يفرح به محبه أعظم فرح وأكمله، والشاهد أقوى شاهد تؤيده الفطرة والعقل، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الأمر العظيم لكان في الفطرة والعقل ما يشهد به، فإذا انضافت الشرعة المنزلة إلى العقل المنور، فذلك الذي لا غاية له بعده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم"(٢).

ومن تقريراته رحمه الله أن الفطر لا تستقل بمعرفة المسائل الاعتقادية فيقول: "أن الله سبحانه منح عباده فطرة فطرهم عليها، لا تقبل سوى الحق، ولا تؤثر عليه غيره لو تركت، وأيدها بعقول تفرق بين الحق والباطل، وكملها بشرعة تفصل لها ما هو مستقر في الفطرة، وأدركه العقل مجملًا، فالفطرة قابلة والعقل مزك والشرع مبصر مفصل لما هو مركوز في الفطرة مشهود أصله دون تفاصيله بالعقل، فاتفقت فطرة الله المستقيمة والعقل الصريح والوحي المبصر المكمل على الإقرار بموجود فطر هذا العالم بجميع ما فيه عاليه وسافله وما بينهما، وشهدت الفطر والعقول والشرائع المنزلة كلها بأنه ليس من جنس العالم ولا مماثلًا له، وأنه مباين له غير ممتزج به ولا متحد به ولا حال فيه وأنه فوق جميع العالم عال عليه بجميع أنواع العلو ذاتًا وقهرًا وعظمة وأنه موصوف بجميع الكمال المقدس من لوازم ذاته فتوهم رفعه عنه كتوهم عدم ذاته، ومن لم يكن هذا الأصل معلومًا عنده علمًا لا يشك فيه ولا يرتاب بل هو لقلبه كالمشاهدات لبصره وإلا اضطرب عليه باب معرفة الله ووحدانيته وتصديق رسله فلا يجوز أن يقدح في مقدمات هذا الأصل التي هي في أعلى مراتب الضروريات بمقدمات يدعي أربابها، أنها نظريات ومن خالفهم فيها يقول: إنها غير صحيحة بل معلومة الفساد، إما بضرورة العقل أو بالنظر الصحيح المفضي إلى الضرورة.

(١) شفاء العليل. (٢٠٠).
(٢) طريق الهجرتين. (٢٤٢).

ومن أبين ما شهدت به الفطر والعقول والشرائع علوه سبحانه فوق جميع العالم فإن الله فطر على هذا الخليقة حتى الحيوان البهيم، ومن أنكر هذا فهو في جانب، والفطر السليمة والعقول المستقيمة وجميع الكتب السماوية ومن أرسل بها في جانب"(١).

وقال: "وهكذا المؤمن قلبه مضيئ يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نورًا بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثر، ثم يسمع الأثر مطابقًا لما شهدت به فطرته فيكون نورًا على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملًا ثم يسمع الأثر جاء به مفصلًا، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة"(٢).

وقال أيضًا: "فكلما تراه بعينك، أو تسمعه بأذنك، أو تعقله بقلبك، وكلما يخطر ببالك، وكلما نالته حاسة من حواسك؛ فهو دليل على الرب تبارك وتعالى، فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجلي منها، وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته؛ ولهذا قالت الرسل لأممهم: أفي الله شك؟ فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي ان يخطر له شك ما في وجود الله سبحانه ونصب من الادلة على وجوده وحدانيته، وصفات كماله.

الأدلة على اختلاف أنواعها ولا يطيق حصرها إلا الله ثم ركز ذلك في الفطرة ووضعه في العقل جملة ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا يقول تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾(٤) وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾(٥) وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾(٦) وهو كثير في القرآن ومفصلين لما في الفطرة والعقل العلم به جملة فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله ومجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإسائته مودعا في الفطرة مركوزا فيها فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه ولأقرت بوحدانية ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب"(٧).

ومن تقريراته رحمه الله وجوب التمسك بالفطرة السليمة وأن تعطيل الفطر بوصل إلى الهلاك والضلال والغواية فيقول: "فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها وتأليهه، فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة.

(١) الصواعق المرسلة. (٤/١٢٧٧-١٢٧٨).
(٢) الوابل الصيب. (٥٣).
(٣) سورة: الذاريات. الآية: ٥٥.
(٤) سورة: الأعلى. الآية: ٩.
(٥) سورة: الغاشية. الآية: ٢١.
(٦) سورة: المدثر. الآية: ٤٩.
(٧) مفتاح دار السعادة (١/٢٨٠).

ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها إلى حالتها التي خلقت عليها فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها"(١).

وقال: "قوم لم يستجيبوا للرسل ولا انقادوا لهم بل استمروا على الخروج عن الفطرة ولم يرجعوا إليها واستحكم فسادها فيهم أتم استحكام لا يرجى لهم صلاح فهؤلاء لا يفي مجيء الدنيا ومصائب الموت وما بعده وأهوال القيامة بزوال أوساخهم وأدرانهم ولا يليق بحكمة العليم الحكيم أن يجاور بهم الطيبين في دارهم ولم يخلقوا للفناء فهؤلاء أهل دار الابتلاء والامتحان باقون فيها ببقاء ما معهم من درن الكفر والشرك والنار إنما أوقدت عليهم بأعمالهم الخبيثة فعذابهم بنفس أعمالهم السيئ لهم منها صور من العذاب يناسبها ويشاكلها فالعذاب باق عليهم ما بقيت حقائق تلك الأعمال وما تولد منها فما دامت موجبات العذاب باقية فالعذاب باقٍ، يبقى أن يقال فهل ذهب أثر الفطرة الأولى بالكلية بحيث صارت كأن لم تكن وبطلت بالكلية وانتقل الأمر إلى العارض المفسد لها وعلى هذا فلا سبيل إلى خلاصهم من العذاب إذ هو أثر ذلك الفساد الذي أزال الفطرة أو يقال الفطرة لم تذهب بالكلية وإنما استحكم مرضها وفسادها وأصلها باق كما يستحكم مرض البدن وفساده والحياة قائمة به لكنها حياة لا تنفع فإذا قدر دواء كريه صعب التناول لا سبيل إلى الصحة إلا بتكرير تناوله مرارًا كثيرة العدد جدًا يزيل ذلك المرض العارض فيظهر أثر الفطرة الأولى فلا يحتاج بعده إلى الدواء هذا سر المسألة ومن يذهب إلى هذا التقدير الثاني فإنه يقول العقل لا يدل على امتناع ذلك إذ ليس فيه ما يحيله ونقول بل قد دل العقل والنقل والفطرة على أن الرب تعالى حكيم رحيم"(٢).

ومن تقريراته رحمه الله وجوب المحافظة على بقاء الفطرة على نقائها وأن أي تدنيس للفطر يودي إلى عدم ثبوت أي امر شرعي فيقول: "والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأمرين هما أصل السعادة أحدهما: أن خلقهم في أصل النشأة على الفطرة السليمة فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وشبه ذلك بخروج البهيمة صحيحة سالمة حتى يجدعها صاحبها .... فإذا تركت النفس وفطرتها لم تؤثر على محبة باريها وفاطرها وعبادته وحده شيئًا ولم تشرك به ولم تجحد كمال ربوبيته وكان أحب شيء إليها وأطوع شيء لها وآثر شيء عندها ولكن يعدها من يقترن بها من شياطين الجن والإنس بتزيينه وإغوائه حتى ينغمس موجبها وحكمها الأمر الثاني: أنه سبحانه هدى الناس هداية عامة بما أودعه فيهم من المعرفة ومكنهم من أسبابها وبما أنزل إليهم من الكتب وأرسل إليهم من الرسل وعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه ففي كل نفس ما يقتضي معرفتها بالحق ومحبتها له وقد هدى الله كل عبد إلى أنواع من العلم يمكنه التوصل بها إلى سعادة الآخرة وجعل في فطرته محبة لذلك لكن قد يعرض العبد عن طلب علم ما ينفعه فلا يريده ولا يعرفه وكونه لا يريد ذلك ولا يعرفه أمر عدمي فلا يضاف إلى الرب لا هذا ولا هذا فإنه من هذه الحيثية شر والذي يضاف إلى الرب علمه به وقضاؤه له بعدم مشيئته لضده وإبقائه على العدم الأصلي وهو من هذه الجهة خير فإن

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. (٢/ ١٥٨).
(٢) شفاء العليل. (٢٥٤).

العلم بالشر خير من الجهل به وعدم رفعه بإثبات ضده إذا كان مقتضى الحكمة كان خيرًا وإن كان شرًا بالنسبة إلى محله"(١).

وقال: "فإن النفس لها مطلوب مراد بضرورة فطرتها، وكونها مريدة هو من لوازم ذاتها؛ فإنها حية، وكل حي شاعر متحرك بالإرادة؛ وإذا كان كذلك فلا بد لكل مريد من مراد والمراد: إما أن يكون مرادًا لنفسه أو لغيره، والمراد لغيره لا بد أن ينتهي إلى مراد لنفسه قطعًا للتسلسل في العلل الغائية فإنه محال كالتسلسل في العلل الفاعلة، وإذا كان لا بد للإنسان من مراد لنفسه فهو الله الذي لا إله إلا هو: الذي تألهه النفوس، وتحبه القلوب، وتعرفه الفطر، وتقر به العقول، وتشهد بأنه ربها ومليكها وفاطرها، فلا بد لكل أحد من إله يأله، وصمد يصمد إليه، والعباد مفطورون على محبة الإله الحق، ومعلوم بالضرورة أنهم ليسوا مفطورين على تأله غيره؛ فإذًا إنما فطروا على تألهه وعبادته وحده؛ فلو خلوا وفطرهم لما عبدوا غيره، ولا تألهوا سواه .... أنه يستحيل أن تكون الفطرة خالية عن التأله والمحبة، ويستحيل أن يكون فيها تأله غير الله لوجوه منها: أن ذلك خلاف الواقع، ومنها أن ذلك المخلوق ليس أولى أن يكون إلها لكل الخلق من المخلوق الآخر، ومنها: أن المشركين لم يتفقوا على إله واحد بل كل طائفة تعبد ما تستحسنه، ومنها: أن ذلك المخلوق إن كان ميتًا فالحي أكمل منه فيمتنع أن يكون الناس مفطورين على عبادة الميت، وإن كان حيًا فهو أيضًا مريد فله إله تألهه؛ وحينئذ فلزم الدور الممتنع، أو التسلسل الممتنع، فلا بد للخلق كلهم من إله يألهوه، ولا يأله هو غيره، وهذا برهان قطعي ضروري"(٢).

ومن تقريراته رحمه الله أن الروح المفطورة على الوهية ربها فهي محتاجة إلى زيادة معرفة الله ووحدانيته وصفات كماله فيقول: "وإذا كانت الروح مفطورة على تأله فاطرها وخالقها، وهي فقيرة إليه أعظم الافتقار من جهة كونه ربها وخالقها وممسكها وحافظها ومغذيها وطبيبها ومداويها ومن جهة كونه إلهها، ومحبوبها ومطلوبها وغاية مناها، فهي إلى معرفة هذا المطلوب ومعرفة كماله وجماله وأوصاف جلاله أشد شيء ضرورة، وكلما كانت معرفتها بذلك أوفر كانت محبتها له أقوى مالم يعقها عائق، ويمنعها مانع من مرض يتعطل به، أو تضعف عن نهوضها بالجد في طلب هذا المحبوب.

وهذا العائق شيئان إما جهل بهذا المطلوب وكونه لم يقدره حق قدره، ولم تهتد من معرفة كماله وجماله وجلاله إلى ما يدعوها إلى طلبه، وإيثاره على غيره، وإما فساد في إرادتها لما تعلقت بغيره وآثرته عليه ففسدت فطرتها التي فطرت عليها فانتقلت بفسادها عنه إلى غيره وهذه مقدمات فطرية ضرورية لا ينازع فيها سليم العقل والفطرة، وإذا عرف هذا فالرسل جاءوا بكمال الأمرين على أتم الوجوه فإنهم ذكروا من صفات هذا الرب الذي تألهه القلوب وتطمئن إليه الأرواح ما يكون داعيًا إلى محبته، وأمروا الناس من توحيده وعبادته وحده لا شريك له بما إذا فعلوه أحبهم عليه"(٣).

(١) انظر: المرجع السابق (١٧٣).
(٢) انظر: المرجع السابق. (٣٠٦).
(٣) الصواعق المرسلة. (٤/١٣٥٥-١٣٥٦).

ومن تقريراته رحمه الله اثبات ان الفطرة تعرف الأمور النافعة والضـــارة فيقول: "وقد ركز الله فطر الناس وعقولهم على التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما، والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما.

قالوا: ومدار الاستدلال جميعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين؛ فإنه إما استدلال بمعين على معين أو بمعين على عام، أو بعام على معين، أو بعام على عام؛ فهذه الأربعة هي مجامع ضروب الاستدلال"(١).

وقال أيضًا: "فقد وضع الله سبحانه في العقول والفطر استحسان الصدق والعدل، والإحسان، والبر، والعفة، والشـــجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصـــلة الأرحام، ونصـــيحة الخلق، والوفاء بالعهد، وحفظ الجوار، ونصـــر المظلوم، والإعانة على نوائب الحق، وقرى الضـــيف، وحمل الكل، ونحو ذلك، ووضـــع في العقول والفطر استقباح أضداد ذلك، ونسبة هذا الاستحسان والاستقباح إلى العقول والفطر كنسبة استحسان شرب الماء البارد عند الظمأ، وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع، ولبس ما يدفئه عند البرد، فكما لا يمكنه أن يدفع عن نفســـه وطبعه استحسان ذلك ونفعه، فكذلك لا يدفع عن نفسه وفطرته استحسان صفات الكمال ونفعها، واستقباح أضدادها، ومن قال: إن ذلك لا يعلم بالعقل، ولا بالفطرة، وإنما عرف بمجرد السمع، فقوله باطل"(٢).

وفي ختام هذا المطلب فقد اتضـحت جهود الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في تقرير اعتماده على الفطرة دليلًا على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام.

المطلب الرابع: مســـائل تبين جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أن الفطرة الســـليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، وفيه مسألتان

المسألة الأولى: وجود الله عز وجل

إن في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من الأدلة على وجوده سبحانه ما يشفي ويكفي، بل إن الشـواهد على وجود الله كثيرة، غير أن هناك شـاهدًا آخر، وهو الشـعور الموجود في نفس كل إنسـان بوجوده سـبحانه، وهو أمر فطر الله الناس عليه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾(٣)، وهذا الإقرار من بني آدم أملته الفطرة السليمة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾(٤).

وقد اتفق أهل الفطر الســـليمة من الجن والإنس على وجود الله تعالى، بل وجوب وجوده ســـبحانه، ودلت الفطرة السليمة المودعة في النفوس على هذه الحقيقة الكبرى.

(١) اعلام الموقعين. (١٠١/١).
(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. (١٣٨/٢).
(٣) سورة الأعراف. الآيتان: ١٧٢.
(٤) سورة الروم. الآية: ٣٠.

فإن الإنسان إذا دهاه أمر وضاقت به المسالك وأحاطت به المصائب تضرع إلى الله ولجأ إليه واستغاث به حتى ولو كان عاصيًا معرضًا، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾(٢).

فوجوده سبحانه مركوز في الفطر، ولن نجد إنسانًا سليم الفطرة يعتقد أن الله سبحانه وتعالى يخفى على عباده، لأن الله قد غرس في بنية الفطرة التوجه إليه ودعاءه عند النوازل والشدائد.

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية: "قال شيخ الإسلام: والذي تقرر في قلوب العامة هو ما فطر الله تعالى عليه الخليقة من توجهها إلى ربها تعالى عند النوازل والشدائد والدعاء والرغبات إليه تعالى: نحو العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة من غير موقف وقفهم عليه ولكن: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾(٣)، وما من مولود إلا وهو يولد على هذه الفطرة حتى يجهمه وينقله إلى التعطيل من يقيض له"(٤).

فالإقرار بوجود الله عز وجل أمر فطري فطر الله عليه الناس، بل إن المشركين كانوا يقرون بربوبية الله فضلًا عن وجوده، كما قال الله عز وجل عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ﴾(٥).

ومعلوم أن مذهب أهل السنة والجماعة هو أن وجوده تعالى أمر فطري معلوم بالضرورة، وقد سار على هذا المذهب الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله، وكان له جهد كبير في تقرير وجود الله عز وجل من خلال أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، واستدل في كتبه على وجود الله بالفطرة السليمة، وسأذكر بعض النماذج والأمثلة من ذلك:

١- قوله رحمه الله: "أن الله سبحانه منح عباده فطرة فطرهم عليها، لا تقبل سوى الحق، ولا تؤثر عليه غيره لو تركت، وأيدها بعقول تفرق بين الحق والباطل، وكملها بشرعة تفصل لها ما هو مستقر في الفطرة، وأدركه العقل مجملًا، فالفطرة قابلة والعقل مزك والشرع مبصر مفصل لما هو مركوز في الفطرة مشهود أصله دون تفاصيله بالعقل، فاتفقت فطرة الله المستقيمة والعقل الصريح والوحي المبصر المكمل على الإقرار بموجود فطر هذا العالم بجميع ما فيه عاليه وسافله وما بينهما، وشهدت الفطر والعقول والشرائع المنزلة كلها بأنه ليس من جنس العالم

(١) سورة يونس. الآية: ١٣.
(٢) سورة الإسراء. الآية: ٦٧.
(٣) سورة الروم. الآية: ٣٠.
(٤) اجتماع الجيوش. (١٣٤).
(٥) سورة لقمان. الآية: ٢٥.

ولا مماثلًا له، وأنه مباين له غير ممتزج به ولا متحد به ولا حال فيه وأنه فوق جميع العالم عال عليه بجميع أنواع العلو ذاتًا وقهرًا وعظمة وأنه موصوف بجميع الكمال المقدس من لوازم ذاته"(١).

٢- قوله رحمه الله: "كيف وقد غرس الله في الفطرة ومعارف الآدميين من ذلك ما لا شيء أبين منه، ولا أوكد؟ لا بل لا تسأل أحدًا من الناس عنه: عربيًا ولا عجميًا، ولا مؤمنًا ولا كافرًا فتقول: أين ربك؟ إلا قال في السماء، إن أفصح أو أومأ بيده، وأشار بطرفه إن كان لا يفصح، لا يشير إلى غير ذلك من أرض ولا سهل ولا جبل، ولا رأينا أحدًا داعيًا إلا رافعًا يديه إلى السماء"(٢).

٣- قوله رحمه الله: "فإن الله فطر عباده على الإقرار بعلوه، كما فطرهم على الإقرار بأنه ربهم وخالقهم، فغيروا الفطرة وأفسدوها بإنكار ذلك"(٣).

٤- قوله رحمه الله: "كيف يتوهم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك وهذا الوجود شاهد بحكمته وعنايته بخلقه أتم عناية وما في مخلوقاته من الحكم والمصالح والمنافع والغايات المطلوبة والعواقب الحميدة أعظم من أن يحيط به وصف أو يحصره عقل ويكفي الإنسان فكره وخلقه وأعضائه ومنافعها وقواه وصفاته وهيأته فإنه لو استنفد عمره لم يحط علما بجميع ما تضمنه خلقه من الحكم والمنافع على التفصيل والعالم كله علويه وسفليه بهذه المثابة ولكن لشدة ظهور الحكمة ووضوحها وجد الجاحد السبيل إلى إنكارها وهذا شأن النفوس الجاهلة الظالمة كما أنكرت وجود الصانع تعالى مع فرط ظهور آياته ودلائل ربوبيته بحيث استوعبت كل موجود ومع هذا فسمحت بالمكابرة في إنكاره"(٤).

٥- قوله رحمه الله: "إن الله فطر عباده على فطرة فيها الإقرار به ومحبته والإخلاص له والإنابة إليه وإجلاله وتعظيمه، وأن الشخص الخارج عنها لا يحدث فيها ذلك ويجعلها فيها بعد أن لم يكن، وإنما يذكرها بما فيها وينبهها عليه ويحركها له ويفصله لها ويبينه ويعرفها الأسباب المقوية والأسباب المعارضة له والمانعة من كماله"(٥).

٦- قوله رحمه الله: "فالخلق مفطورون على معرفته وتوحيده فلو خلّوا وهذه الفطرة لنشأوا على معرفته وعبادته وحده، وهذه الفطرة أمر خلقي خلقوا عليه ولا تبديل لخلقه، فمضى الناس على هذه الفطرة قرونًا عديدة ثم عرض لها موجب فسادها وخروجها عن الصحة والاستقامة بمنزلة ما يعرض للبدن الصحيح والطبيعة الصحيحة مما يوجب خروجهما عن الصحة إلى الانحراف، فأرسل رسله ترد الناس إلى فطرتهم الأولى التي فطروا عليها"(٦).

فالإمام ابن قيم الجوزية في قوله السابق يرى بأن الفطرة قد تصاب بما يغطيها، وتحتاج لأدلة توقظها وتجليها، وفي الشرع أدلة كثيرة لإيقاظ الفطرة، ومنها:

---

(١) الصواعق المرسلة. (١٢٧٧/٤ -١٢٧٨).
(٢) المرجع السابق (١٢٣٩/٤).
(٣) المرجع السابق (١٣٤١/٤).
(٤) شفاء العليل. (٢٠٤-٢٠٥).
(٥) المرجع السابق. (٣٠٢).
(٦) المرجع السابق. (٢٥٣).

النظر والتأمل في هذا العالم، وبديع صنعه، فمن تأمل في ذلك أدرك أن وجود العالم بما حوى من مخلوقات لم يكن وليد صدفة بل إن وراء ذلك خالقًا عالمًا حكيمًا، لأن وجود مخلوق بدون خالق مستحيل في الفطر والعقول، يقول ابن قيم الجوزية: "تأمل حال العالم كله، علويه وسفليه، بجميع أجزائه: تجده شاهدًا بإثبات صانعه وفاطره ومليكه، فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده، لا فرق بينهما، بل دلالة الخالق على المخلوق، والفعّال على الفعل، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العلوية، والفطر الصحيحة: أظهر من العكس.

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما"(١).

وبهذا يتبين أن الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله أثبت وجود الله تعالى من خلال الفطرة السليمة، على مذهب أهل السنة والجماعة.

المسألة الثانية: علو الله على خلقه

أجمع سلف الأمة وأئمتها على علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه، وأنه بائن من خلقه وهم بائنون منه، وكتاب الله تعالى وسنة رسوله الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والتابعين وسائر الأئمة قد دل على أن الله فوق سماواته، قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾(٦)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾(٧)، والآيات في ذلك كثيرة جدًا.

وحديث معاوية بن الحكم السلمي، قال: (كانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظّم ذلك عليّ، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها فأتيته بها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها، فإنها مؤمنة)(٨).

---

(١) انظر: مدارج السالكين. (١/٨٢-٨٣).
(٢) سورة الأعلى. الآية: ١.
(٣) سورة فاطر. الآية: ١٠.
(٤) سورة آل عمران. الآية: ٥٥.
(٥) سورة النساء. الآية: ١٥٨.
(٦) سورة الزمر. الآية: ١.
(٧) سورة النحل. الآية: ١٠٢.
(٨) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (١/٣٨١-٣٨٢)، برقم (٥٣٧)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة (٢/١٩١-١٩٢)، برقم (٩٣٠).

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات)[١].

وحديث أبي موسى رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات، فقال: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[٢].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم الرب، وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهو يصلون)[٣].

وحديث أبي هريرة أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها)[٤]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًا.

وقد أثبت أهل السنة والجماعة علو الله عز وجل على خلقه من غير تعطيل ولا تأويل ولا تشبيه، لكن المعطلة من: الجهمية، والمعتزلة، ومتأخري الأشاعرة، والقرامطة الباطنية، ينفون علو الله وارتفاعه فوق خلقه، وكل ذلك تحت دعوى التوحيد والتنزيه ونفي التشبيه[٥].

وكما أن الكتاب والسنة قد دلّا على علو الله عز وجل، فكذلك الفطرة السليمة، فإن الله تعالى قد فطر العباد عربهم وعجمهم على أنهم إذا دعوا الله توجهت قلوبهم إلى العلو، وما قال عارف قط بالله: يا لله، إلا وجد في قلبه قبل أن يتحرك لسانه معنى يطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، بل قد فطر الله على ذلك جميع الأمم في الجاهلية والإسلام؛ إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته.

وقال ابن تيمية: "وأما كونه عاليًا على مخلوقاته بائنًا منهم: فهذا أمر معلوم بالفطرة الضرورية التي يشترك فيها جميع بني آدم، وكل من كان بالله أعرف، وله أعبد، ودعاؤه له أكثر، وقلبه له أذكر، كان علمه الضروري بذلك أقوى وأكمل، فالفطرة مكملة بالفطرة المنزلة، فإن الفطرة تعلم الأمر مجملًا، والشريعة تفصله وتبينه، وتشهد بما لا تستقل الفطرة به"[٦].

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء (١٢٤/٩)، برقم (٧٤٢٠)
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام، برقم (١٧٩) (١٦١/١-١٦٢).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، برقم (٥٥٥) (١١٥/١).
(٤) أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها (١٠٦٠/٢)، برقم (١٤٣٦).
(٥) انظر: العرش. (١٣٩/١).
(٦) مجموع الفتاوى. (٤٥/٤).

فالفطرة السليمة، قد جبلت على الاعتراف بعلو الله سبحانه وتعالى، ويظهر هذا الأمر عندما يجد الإنسان نفسه مضطرًا إلى أن يقصد جهة العلو ولو بالقلب حين الدعاء، وهذا الأمر لا يستطيع الإنسان دفعه عن نفسه فضلًا عن أن يرد على قائله وينكر هذا الأمر عليه.

ومن أجل ذلك لم يجد الجويني جوابًا حين سأله الهمذاني محتجًا عليه بها، فقد حضر الهمداني مجلس أبي المعالي الجويني، وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان، فقال الهمداني: يا أستاذ دعنا من ذكر العرش – يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع – أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارفٌ قط يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة من قلوبنا؟ قالوا: فلطم الجويني على رأسه وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمذاني[1].

وقال ابن تيمية: "علو الخالق على المخلوق وأنه فوق العالم، أمر مستقر في فطر العباد، معلوم لهم بالضرورة، كما اتفق عليه جميع الأمم، إقرارًا بذلك، وتصديقًا، من غير أن يتواطأوا على ذلك ويتشاعروا، وهم يخبرون عن أنفسهم أنهم يجدون التصديق بذلك في فطرهم... وهم عندما يضطرون إلى قصد الله وإرادته، مثل قصده عند الدعاء والمسألة، يضطرون إلى توجه قلوبهم إلى العلو، فكما أنهم مضطرون إلى دعائه وسؤاله، وهم مضطرون إلى أن يوجهوا قلوبهم إلى العلو إليه، لا يجدون في قلوبهم توجهًا إلى جهة أخرى، ولا استواء الجهات كلها عندها وخلو القلب عن قصد جهة من الجهات، بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى أن تقصد جهة علوهم دون غيرها من الجهات.... فهذا يتضمن بيان اضطرارهم إلى قصده في العلو، وتوجههم عند دعائه إلى العلو، يتضمن فطرتهم على الإقرار بأنه في العلو والتصديق بذلك"[2].

فأهل السنة قد أثبتوا علو الله على خلقه بدليل الفطرة السليمة، وقد سار على نهجهم الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله وقام بتقرير صفة العلو من خلال دليل الفطرة، وسأذكر بعضًا من أقواله التي استشهد فيها بالفطرة السليمة على هذه المسألة الاعتقادية:

١ – قوله رحمه الله: "علوه سبحانه على العالم، وأنه فوق السماوات كلها، وأنه فوق عرشه أمر مستقر في فطر العباد، معلوم لهم بالضرورة، كما اتفق عليه جميع الأمم إقرارًا بذلك وتصديقًا من غير تواطؤ منهم على ذلك ولا تشاعر، وهم يخبرون عن أنفسهم أنهم يجدون ذلك بالضرورة، وجميع الطوائف تنكر قول المعطلة إلا من تلقاه منهم، وأما العامة من جميع الأمم ففطرهم جميعهم مقرة بأن الله فوق العالم، وإذا قيل لهم لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، ولا مباين له ولا محايث، ولا يصعد إليه شيء ولا ينزل منه شيء، ولا يقرب إليه شيء ولا يقرب هو من شيء، ولا يحجب العباد عنه حجاب منفصل، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا تتوجه إليه القلوب نحو العلو، أنكرت فطرهم ذلك غاية الإنكار ودفعته غاية الدفع"[3].

(١) انظر: العرش. (١/١٣٧)، شرح العقيدة الطحاوية. (٢/٣٩٠).
(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل. (٧/٥).
(٣) الصواعق المرسلة. (٤/١٢٨١).

٢- قوله رحمه الله: "أن العباد كلهم مضطرون إلى دعاء الرب سبحانه وسؤاله وقصده، والافتقار إليه، كما قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[١] وهم مضطرون إلى توجيه قلوبهم إلى العلو، كما أنهم مضطرون إلى دعائه وقصده وسؤاله، كما أنهم يضطرون إلى الإقرار به، وأنه ربهم وخالقهم ومليكهم، ولا يجدون فرقًا بين هذا الاضطرار وهذا، فكما لا تتوجه قلوبهم إلى رب غيره، ولا إلى إله سواه، فكذلك لا يجدون في قلوبهم توجهًا إلى جهة أخرى غير العلو، بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى قصد جهة العلو دون سائر الجهات، وهذا يتضمن اضطرارهم إلى قصده سبحانه في العلو، وإقرارهم وإيمانهم بذلك"[٢].

٣- قوله رحمه الله: "ومن أبين ما شهدت به الفطر والعقول والشرائع علوه سبحانه فوق جميع العالم، فإن الله فطر على هذا الخليقة حتى الحيوان البهيم، ومن أنكر هذا فهو في جانب، والفطر السليمة والعقول المستقيمة وجميع الكتب السماوية ومن أرسل بها في جانب"[٣].

٤- قوله رحمه الله: "فإن الله فطر عباده على الإقرار بعلوه كما فطرهم على الإقرار بأنه ربهم وخالقهم فغيروا الفطرة وأفسدوها بإنكار ذلك"[٤].

٥- قوله عن أبي محمد عبد الله بن كُلّاب[٥]، قال: "كيف وقد غرس في بنية الفطرة ومعارف الآدميين من ذلك ما لا شيء أبين منه ولا أوكد، لأنك لا تسأل أحدًا عنه عربيًا ولا عجميًا ولا مؤمنًا ولا كافرًا فتقول: أين ربك؟ إلا قال: في السماء، إن أفصح أو أومأ بيده أو أشار بطرفه إن كان لا يفصح، لا يشير إلى غير ذلك من أرض ولا سهل ولا جبل، ولا رأينا أحدًا داعيًا إلا رافعًا يديه إلى السماء"[٦].

وبهذا يتضح جليًا أن الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله قد أثبت صفة علو الله تعالى على خلقه مستدلًا بالفطرة السليمة.

وسأكتفي بما ذكرته من تقريرات ومسائل اعتقادية في هذه المسألة لأن بها تحقق الهدف، ويبين جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام.

الخاتمة:

تم البحث الموسوم بجهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، وجاءت أهم النتائج التي توصلت إليها كالتالي:

---

(١) سورة الرحمن. الآية: ٢٩.
(٢) الصواعق المرسلة. (١٣٠٦/٤).
(٣) المرجع السابق (١٢٧٨/٤).
(٤) المرجع السابق (١٣٤١/٤).
(٥) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان، البصري، رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، وصاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، مات سنة (٢٤٥هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء (١٧٥/١١)، الأعلام (٩٠/٤).
(٦) الصواعق المرسلة. (١٢٨٢/٤).

- يتبين أن الفطرة في اللغة تأتي بعدة معان بمعنى الخلق، وبمعنى الشق، وبمعنى التصدع، وبمعنى الابتداء، وبمعنى الإيجاد، وبمعنى الإبداع.
- أن التعريف الاصطلاحي المختار والراجح عند السلف أن الفطرة تعني الدين أو الإسلام، وهو قال به عامة السلف.
- أن أنواع الفطرة فطرتان الأولى: فطرة تتعلق بالقلب: وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه فهي تزكي الروح وتطهر القلب، وفطرة عملية: وهي الخصال المذكورة بالحديث وهي تطهر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها.
- أن معرفة الله عز وجل مغروسة بالفطر الإنسانية، وأنه مجبول على العقيدة الصحيحة، ولا يجهلها إلا من بعاند ما فطره الله عليه.
- جهود الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في تقريره اعتماده على أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.
- يقرر رحمه الله اثبات ان الله خلق الخلق على هذه الفطرة أن الفطرة هي الإسلام والدين والملة والحنفية والتوحيد.
- يقرر رحمه الله أن الفطرة مركوز بها معرفة الله سبحانه، وتدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الفطر لا تستقل بمعرفة المسائل الاعتقادية.
- يقرر رحمه الله أن الفطرة السليمة تدل على العقيدة الصحيحة وتقررها، وأن الناس فطروا على الإسلام، عند أهل السنة والجماعة.
- يقرر رحمه الله أن الفطر تثبت صفات الكمال والجلال لله سبحانه وتعالى على سبيل الاجمال أن أهل السنة والجماعة يستدلون بالفطرة على المسائل الاعتقادية.
- يقرر رحمه الله أن الفطر والعقل متوافقة في اثبات المسائل العقدية.
- يقرر رحمه الله وجوب التمسك بالفطرة السليمة وأن تعطيل الفطر بوصل إلى الهلاك والضلال والغواية.
- يقرر رحمه الله وجوب المحافظة على بقاء الفطرة على نقائها وأن أي تدنيس للفطر يودي إلى عدم ثبوت أي امر شرعي.

المراجع:

اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية. المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم أبو عبدالله دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، (١٤٠٤/١٩٨٤).

أحكام أهل الذمة. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: يوسف بن أحمد البكري - شاكر بن توفيق العاروري، رمادى للنشر: الدمام، ط١، (١٤١٨/١٩٩٧).

اعلام الموقعين عن رب العالمين. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

الأعلام. المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي. (المتوفى: ١٣٩٦هـ). دار العلم للملايين: ط١٥، (٢٠٠٢م).

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة: بيروت، ط٢، (١٣٩٥/١٩٧٥).

بدائع الفوائد. المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله. مكتبة نزار مصطفى الباز: مكة المكرمة، ط١، (١٤١٦/١٩٩٦) تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، أشرف أحمد الج.

بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار. المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي. (المتوفى: ١٣٧٦هـ). المحقق: عبد الكريم بن رسمي الدريني، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع: ط١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

تحفة المودود بأحكام المولود. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان: دمشق، ط١، (١٣٩١/١٩٧١).

تفسير القرآن العظيم. المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. (المتوفى: ٧٧٤هـ). المحقق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون: بيروت، ط١، (١٤١٩هـ).

التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي. (المتوفى: ٤٦٣هـ). تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية: المغرب، (١٣٨٧هـ).

تهذيب اللغة. المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور. (المتوفى: ٣٧٠هـ). المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي: بيروت، ط١، (٢٠٠١م).

جلاء الافهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة: الكويت، ط٢، (١٤٠٧/١٩٨٧).

درء تعارض العقل والنقل. المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي. (المتوفى: ٧٢٨هـ). تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: المملكة العربية السعودية، ط٢، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

زاد المعاد في هدي خير العباد. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). مؤسسة الرسالة: بيروت، مكتبة المنار الإسلامية: الكويت، ط٢٧، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

سنن أبو داود. المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني. (٢٠٢-٢٧٥هـ). المحقق: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية: ط١، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

سير أعلام النبلاء. المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي. (المتوفى: ٧٤٨هـ). دار الحديث: القاهرة، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

شرح العقيدة الطحاوية. المؤلف: صدر الدين علي بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي. (المتوفى: ٧٩٢هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط١٠، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار المعرفة: بيروت، لبنان، (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي. (المتوفى: ٣٩٣هـ). تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين: بيروت، ط٤، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي): ط١، (١٤٢٢هـ).

صحيح مسلم. المؤلف: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. (٢٠٦/٢٦١هـ). المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).

الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة: الرياض، المملكة العربية السعودية ط١، (١٤٠٨هـ).

طريق الهجرتين وباب السعادتين. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). دار السلفية: القاهرة، مصر، ط٢، (١٣٩٤هـ).

العرش. المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي. (المتوفى: ٧٤٨هـ). المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية: المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٢، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

فتح الباري شرح صحيح البخاري. المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي. دار المعرفة: بيروت، (١٣٧٩) رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (نونية ابن القيم). تأليف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). تحقيق: محمد بن عبد الرحمن العريفي، ناصر بن يحيى الجنيني، عبد الله بن عبد الرحمن الهذيل، فهد بن علي المساعد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع: مكة، ط١، (١٤٢٨هـ).

كتاب العين. المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري. (المتوفى: ١٧٠هـ). المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية. المؤلف: شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي. (المتوفى: ١١٨٨هـ). مؤسسة الخافقين ومكتبتها: دمشق، ط٢، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

مجموع الفتاوى. المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني. (ت: ٧٢٨هـ). المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف: المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي: بيروت،ط٣، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

مسند الإمام أحمد بن حنبل. المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. (المتوفى: ٢٤١هـ). المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة: ط١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). دار الكتب العلمية: بيروت.

المفردات في غريب القرآن. المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. (المتوفى: ٥٠٢هـ). المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية: دمشق، بيروت، ط١، (١٤١٢هـ).

الوابل الصيب من الكلم الطيب. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (المتوفى: ٧٥١هـ). تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث: القاهرة، ط٣، (١٩٩٩م).